قيام السلف رضي الله عنهم

كانت سُنة السلف رحمهم الله أنهم يصلون هذه الصلاة في نصف الليل، أو في ثلثه؛ أي ثلاث ساعات، كلها في تهجد، فإذا كان الليل طويلا صلوا أربع ساعات أو أكثر، وإن كان قصيرا صلوا نحو ثلاث ساعات كلها في التراويح ، هكذا كانت صلاتهم، فإما أن يقللوا عدد الركعات ويطيلوا القيام والركوع والسجود، وإما أن يزيدوا في عدد الركعات ويخففوا الأركان، ويقللوا القراءة، حتى تكون بمقدار هذه الساعات الثلاث أو الأربع أو نحوها، وقد روى مالك وغيره أنهم أحيانا يحيون الليل فلا ينصرفون إلا قرب الفجر بحيث يستحثون الخدم بإحضار السحور. ولكن في هذه الأزمنة، نشاهد أن الناس قد استولى عليهم الكسل وشغلتهم أمور دنياهم، فصاروا ينظرون لمن يصلي ربع هذه الصلاة أو ثلثها، فيعدونه مكثرا ، بل يعدون القراءة المتوسطة، طويلة! وإذا قرأ إمامهم عليهم سورة فأطالها، يقول قائلهم: أطلتَ فخفِّف!! . ولا شك أن الذين يملُّون من هذه الصلاة هم الكسالى الذين لا يرغبون في هذه العبادة، ذلك أن من فضل هذه الصلاة أن يجعلها المؤمن سرور قلبه، وراحة بدنه، وينبغي أن يجعلها المؤمن قرة عينه كما كانت قرة عين النبي صلى الله عليه وسلم لحديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حبب إلي من الدنيا النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة". أخرجه النسائي برقم (3949-7/61). وأحمد في مسنده: (3/128، 199، 285). والحاكم في المستدرك: (2/160). وينبغي للمسلم أن يجعل جنس الصلاة راحة بدنه، وشفاءه ودواءه، وأن يستعين بها على حاجاته، أليس الله تعالى يقول: { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } ؟! وروي { أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة } أورده السيوطي في الدر المنثور (1/67). وأخرجه أبو داود برقم (1319)، وأحمد في المسند (5/388) عن حذيفه رضي الله عنه بلفظ: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى". فإذا دخل في الصلاة نسي همومه وغمومه، وخلي بربه، وسُرّ قلبه بأنسه بالله تعالى. فهذه هي الحكمة من إطالة الصلاة ومن الركون إليها، فالذين يستثقلون هذه الصلاة إذا صلى أحدهم في ساعة، أو نحوها أو أقل من ذلك عَدُّوا ذلك إطالة وتنفيرا هم الكسالى مع أن هذا نقص للصلاة وعدم طمأنينة، وإخراج لها عن ماهيتها؛ فإنا مأمورون في الصلاة أن نقرأ ونرتل، ومأمورون أن لا ننقص في رمضان عن ختم القرآن مرة أو مرتين. ولقد كان السلف رحمهم الله يقرءون، ويزيدون في القراءة؛ فكانوا يقرءون سورة البقرة في ثماني ركعات -وهي جزآن ونصف الجزء تقريبا - ونحن نرى أن بعض أهل زماننا يصلي سورة البقرة في ثمانين ركعة!! فأين الفرق بين أولئك، وهؤلاء؟!! ونرى آخرين يقتصرون على نصف القرآن أو ثلثيه!! ولا شك أن هذا هو الكسل بعينه! . ونقول لمن يرغب أن يقتدي بنبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يكون حقا من أتباعه، عليه أن يأتي بهذه الصلاة بطمأنينة -سواء رغب المصلون أم لم يرغبوا- فيبين لهم أن هذه هي الصلاة التي تجزئ في القيام وهي التي حث عليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن تكون في خشوع واطمئنان، وهي ما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة وتابعيهم رضي الله عنهم أجمعين. فالقراءة المعتادة أن يختم القرآن في ليلة سبع وعشرين، أو نحوها، وقد أدركت أئمة يختمون في رمضان ثلاث ختمات، حيث إنهم مع أناس يحبون سماع القرآن، ويحبون الخشوع في الصلاة، وإطالتها بينما هناك أناس لا يقرؤون إلا قدرا قليلا من القرآن، فإذا كنت إماما لأناس فعليك أن تصلي بهم الصلاة النبوية، التي تكون بها مدركا للحكمة من هذه العبادة، محصلا للثواب والأجر الذي أعده الله عز وجل لمن قام الليل وتهجد، ورتل القرآن ترتيلا . تنبيه: وهنا أنبه على أمر مهم لمن كان من عادته قيام الليل (أي التهجد) طوال السنة فإنه لا ينبغي له أن يقطع عادته السنوية لأن الصلاة آخر الليل مشهودة، كما ذكر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، لحديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من خاف أن لا يقوم آخر الليل فليوتر أوله، ومن طمع أا يقوم آخره فليوتر آخر الليل، فإن صلاة آخر الليل مشهودة، وذلك أفضل". أخرجه مسلم برقم (755). فإذا صليت أول الليل ما تيسر لك من هذه التراويح فحافظ أيضا على صلاة آخر الليل بما تستطيعه قلّ أو كثر، وبهذا تكون محافظا على العبادات. وهكذا أيضا تحافظ على السنن الرواتب -التي قبل الصلاة وبعدها- فإذا طمعت في الزيادة في هذا الوقت فلا تدخر وسعا ، روي عن بعض السلف: أن الأعمال تضاعف في شهر رمضان، فركعة في رمضان تعدل ألف ركعة فيما سواه، والحسنة فيه بألف حسنة فيما سواه، والفريضة تعدل سبعين فريضة فيما سواه، ومن تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، كما ذكر ذلك ابن رجب رحمه الله في وظائف رمضان وقد ورد بعضها في حديث سلمان الطويل. .